الرِّسَـــالة ٦٩

دَمٌ يَتكلـــّمُ!

(Arabic - Blood that speaks better!)

أحبّائِى: حَديثنا اليوْم مَوضُوعُهُ: دَمٌ يَتكلـــّمُ!

ومِنْ سفر التكوين الأصْحَاح الرّابع نقرأ العَدَدَ العَاشِرَ:
.. فقال الرّبّ لقايين: مَاذا فعلتَ؟.. صَوْتُ دَم أخيكَ صَارخ إلىّ مِنَ الأرض!.[١]

ومِنَ الرِّسَالة إلى العبْرانيِّين الأصْحَاح الثانِى عَشَرَ نقرأ العَدَدَ الرَابع والعِشرينَ:
.. وإلى وَسيطِ العَهْدِ الجَديدِ يَسُوعَ وإلى دَم رَشّ يتكلمُ أفضلَ مِنْ هَابيلَ.[٢]

قدّمَ هابيلُ إلى الرّبّ قربَانَهُ مِنْ أبكار غنمِهِ ومِنْ سِمَانهَا أمّا قايين فقدّم مِنْ أثمَار الأرض قربَاناً للرّبّ فنظرَ الرّبّ إلى هابيل وقربانِهِ.. ولكنْ إلى قايين وقربانه لمْ يَنظرْ.. فاغتاظ قايين جداً فقالَ الرّبُّ لقايينَ لمَاذا اغتظتَ وسقَط وَجْهُكَ.. إنْ أحْسنتَ أفلا رَفعٌ؟!. وحَدَثَ إذ كانَا فى الحقل قامَ قايينُ على هابيلَ أخيهِ وقتلهُ.. أتخيّلُ قايين وهو يَنهَالُ بقسَاوَةٍ على أخيهِ بضَربَات شديدةٍ متتالية رُبّمَا بالأحْجَار أو فرُوع الشجَر الغليظة إلى أنْ سَالَ الدَمُ بغزارَة مِنْ جَسَدِهِ المُمَزّق.. بلا شكّ صَرَخَ هابيل صَرْخَاتٍ قويّةٍ وهو يَستغيثُ فمَا أغَاثهُ أحَدٌ.. ومَا رَقّ قلبُ أخيهِ عَلَيْهِ حتى خَارَت قوَاه وضَعُفتْ صَرخَاتهُ وخفقَ قلبُهُ بالنبَضَاتِ الأخيرَة.. ثم وَصَلتْ صَرْخَاتهُ إلى نهايَتِهَا وتلاشَتْ خفقاتُ قلبهِ وتوقفتْ.. حينئذٍ ابتدَأ الدَمُ يتكلمُ!.. لقدْ فعلَ قايينُ مَا فعلَ وهو مُطمئنٌ إلى أنّ ليسَ هُناكَ مَنْ رأى وليس مَنْ سَمِعَ.. حتى فوجِىءَ بالرّبّ يقولُ لهُ: "مَاذا فعلتَ؟!. صَوْتُ دَم أخيكَ صَارخ إلىّ مِنَ الأرض!".. هُنا أدركَ قايين أنّ الدَمَ يتكلمُ.. وأنّ هُناك مَنْ يَسْمَعُ ويَطلبُ حَقّ الدَم!.

تجرى فى تلكَ الأيّام حوادثٌ شبيهة على غرار ما قرأناهُ اليومَ بالكتاب المقدس.. ومَا تحكى بهِ كتبُ التاريخ البشرىّ مِن اعتدَاء الإنسان على أخيهِ الإنسان بلا ذنبٍ جناهُ أو إثم اقترفهُ.. ولكن إبليسَ يُقنعُ أتبَاعَهُ بارتكاب تلكَ الجرَائم!. أىّ عقلٍ يصدّق أنّ سَفكَ الدمَاء البريئة هو جهَادٌ فى سبيل الله؟!. إلا إذا كانَ عقلا استحوذهُ الشيطانُ؟!. أو أىّ عقلٍ يصدّق أنّ دمَاءَ أبنائهم حَلالٌ سفكهَا إرضاءً لآلهةٍ يَعبدُونهَا؟!. ففى العَهدِ القديم مَذكورٌ أنّهُ حينَ ابتعد بنو إسرائيل عن الإلهِ الحىّ وعبَدُوا آلهة أخرى.. ذبَحوا بنيهم وبناتهم للأوثان!. ويُسجلُ المزمُور السَادس بعدَ المائة هذهِ الكلمَات: "وأهْرَقوا دَماً زكياً دَمَ بنيهمْ وبناتهم الذينَ ذبحُوهُمْ لأصنَام كنْعان وتدنسَتْ الأرضُ بالدِمَاء!". لقد استأسَرَ الشيطانُ فكرَ النّاس وقسّى قلوبَهُم حتى على أولادِهِم.. وأصبَحُوا لا يُدركون فداحَة جُرمِهم ولا هولَ العقاب الذى يَنتظرُهُم.. لقد قالَ السَيّدُ المَسيح لليَهود: "يأتى عليكم كلّ دَم زكىّ سُفِكَ على الأرض مِنْ دَم هابيل الصدّيق إلى دَم زكريّا بن برخيَا الذى قتلتمُوهُ بينَ الهيكل والمَذبَح!".[٣]

فى متحفٍ شهير بمَدينة Victoria عَاصمة (British Columbia – Canada) رأيتُ نماذجَ وتماثيلَ للعُظمَاء بَديعَة الصُنع مِنَ الشَمْع.. هذهِ النمَاذجُ والتمَاثيلُ تذكرُنا بشخصيّاتٍ كانَ لهُم البَاع الطويل فى الآدَاب والعُلوم والاكتشافاتِ العلميّةِ والاختراعَاتِ التى عَادَت على الإنسانيّة بمنافعَ جمّةٍ.. ولكنّى رأيتُ فى مكان مُنعَزل بالطابق السّفلى مِنَ المتحفِ شيئاً أفزَعَنى!. رأيتُ نمَاذجَ لوسَائلَ تعذيبٍ عَجيبَة تفتقَ عنهَا ذهنُ الإنسان!. كانَ يَستعملهَا المُلوكُ والأبَاطرَة فى العُصُور الوُسطى.. للتنكيل بالأبْريَاءِ مِنْ رَعايَاهم وإبَادَتهم بوَحشيّة تفوقُ التصوّرَ والخيَال!.. تأمّلتُ فى مَرَارَةِ مَا اخترَعُوهُ لتعْذيب إخوتهم فى الإنسانيّة!. وبإتقان عَجيب صَنَعَ الفنانون تلكَ النمَاذج مِنَ الشَمْع وجَعلوها تعْملُ وكأنهَا حيّة!. يُصَاحبُهَا مُوسيقى تصْويريّة وأصْوَات آدميّة ونمَاذج لأجسَادِ الأبريَاء كأنهَا ناطقة تتأوّهُ وتصْرُخُ مُستغيثة!. رأيتُ تلكَ المَناظرَ المُرعبَة التى يَعجزُ اللسَانُ عنْ التعبير عَنهَا والمَشاعرُ الآدميّة

---

[١] سفر التكوين ٤: ١٠ ، استمع إلى الإنجيل
[٢] الرسالة إلى العبرانيّين ١٢: ٢٤
[٣] سفر المزامير ١٠٦: ٣٧ – ٣٩ ، إنجيل متى ٢٣: ٣٥

عنْ احتمالهَا والخيَالُ والتصوّرُ البشريّ عنْ استيعَابها.. لقد أريقتْ دِمَاءُ البشر الأبريَاء دونَ ذنبٍ اقترفوه سوى أنّ هؤلاءِ الطغاة وَجَدوا متعتهُم فى سفكِ دمائِهم ليُخرسُوا ألسنَة ناطقة بالحَقّ أوْ ليوقفوا قدراتٍ ومَهارَات حَسَداً وحقداً.. ولكنْ لمْ تنتهِ قصتهُم بَعْدُ وقضيتهُم ماثلة أمَامَ العَدَالةِ الإلهيّة لأنّ الدّمَ تكلم!. وأذنُ القدير سَمِعَتْ. فإن قصُرَتْ يدُ العدالة على الأرض فعدالة السماء يدها لا ولن تقصر.. بل ستفصل فى قضاياهم يوم الدينونةِ وسيأخذ العدلُ الإلهى مَجْرَاه أمَامَ جَميع شُعُوب الأرض ابتدَاءً مِنْ صُرَاخ دَم هابيل إلى آخر صَرخةٍ مِنْ دمَاء الأبريَاء.

إنّ مَا رأيتهُ مِنْ نمَاذجَ لوَسَائل التعذيب فى المتحَف.. ذكرَنى بوَسائل تعذيب مِنْ نوْع آخَر فى وقتنا الحَاضر تعَادلهَا إنْ لمْ تكنْ أشدّ قسوَة نرَاها ولكنْ لا نعيرُها اهتمَاماً.. فقدْ دَرَجَ النّاسُ فى تلكَ الأيّام على أعْمَال وَحشيّة وعلى سُلوك مُشين دونَ مُراعَاة لسنن الله ونواميسِهِ فى نظام خلقِهِ الذى يَبْدَأ بالأجنّةِ. وعلى سَبيل المِثال ما نراهُ فى بَعض الولايَات الأمريكيّة التى سنّت قانوناً يُبيح للمَرأةِ أنْ تتخلصَ مِنَ الجَنين الذى فى بَطنهَا متى شاءَتْ ولأىّ سَبَبٍ اقتنعَتْ بهِ.. لدرجَة أنّ عددَ الأطفال الذين أزْهِقتْ أرواحُهم مِنْ بدْء العَمَل بذلك القانون يُعَدّ بالملايين!.

مثالٌ آخر نرَاهُ يَوْماً بعدَ يَوْم على شَاشَةِ التليفزيون. صُوراً لأناس كالأشبَاح يتضوّرُون جُوعاً ويَمُوتون مَوْتاً بطيئاً ليسَ لهُم حَوْلٌ ولا طوْلٌ.. إنْ حَاوَلوا الصيَاحَ فلا إمكانيّة.. وإنْ أرَادُوا الصّراخَ فلا قدْرَة.. ولكننّى مُقتنعٌ أنّ دمَاءَهُم داخلَ أجسَادِهِم النحيلة تصْرُخُ إلى إلهِ السّمَاء وهو يَسْمَعُ!. قد نتساءلُ: مَن الجَانى؟!. كيفَ يَحدثُ هذا؟!. ولمَاذا يَحدث؟!. لمَاذا نرَى المَجْنى عَليهم ولا نرَى الجُناة؟!. الإجَابَة: لأنّهم عَرفوا كيف يَختبئونَ بَعْدَ استيلائهم على رَغيفِ اليتيم.. وكسَاء الأرْملة.. وعِلاج المَريض.. وقوت العَامِل الكادِح.

يَحْدُثُ هذا الظلم والغُبنُ لأنّ دُوَلاً غنيّة استأثرَت بمَواردِ الرزْق والخَيْر!.. ووَضعَتْ حَولهَا سيَاجاً مِنْ قوّاتهَا وأسلحتهَا لتبقى وَحْدَهَا غنيّة قويّة تملكُ كلّ شىْءٍ دونّ اعتبَار لغيرهَا الذى أصْبَحَ بلا شىْءٍ!. تلكَ الدّول المَغلوبَة على أمْرهَا تعانى بشدّةٍ مِنَ الجُوع والفقر والجَهل والمَرض!. هذهِ الدّول الغنيّة فيها النّاسُ يشبَعون ويَستفضلون ويشاهدُون بأعينهم هؤلاء الذين يتضَوّرُونَ جوعاً.. يشاهدُون بأعينهم الذينَ يصْرُخون مِنْ أجل الفتات السَاقط مِنْ مَائدَة الذين يَشبعُون ويَستفضلون ولكنْ لا حيَاةَ ولا حيَاءَ لمَنْ تنادى!. ولكنْ صَرخَات الدَم الذى يَجْرى فى عُرُوق هؤلاء المَظلومين يَسْمَعُهَا ذاكَ الذى يَقضى بعَدل.. لاستردَاد الحَقّ الضَائع للصَارخين إلَيْهِ وسَينالونَهُ مُضَاعَفاً.. أمّا الذين يَعيشون ليكنزوا لأنفسِهمْ ناسينَ حُقوقَ إخوتهمْ ففى الوَقائد الأبديّة سَينَالون جَزَاءَهم مُضَاعَفاً.

تحدثنا عن دَم المُظلومينَ الذِى يتكلمُ طالباً العَدَالة.. ولكنّنا كلنَا فى حَاجةٍ إلى الدَم الطاهر الزكىّ.. دَم ابْن الله الذى يَتكلمُ طالباً الرَحمة لكلّ نفس تصْرُخُ راجيَة التحْرير مِنْ رُبُط إبليس.. الذى يخَدَعُ بالخطيّةِ ويستعْبَدَ ويذلّ ضَحايَاهُ.. دَمٌ يتكلمُ أفضلَ مِنْ هابيلَ.. دَمُ الفدَاء لِمَنْ يَأتِى مُؤمِناً بمَا عَمِلهُ ابْنُ اللهِ على الصليب.. لكى لا يَهلكَ كلُّ مَنْ يُؤمِنُ بهِ بل تكونُ لهُ الحَياة الأبَديّة.. قال عَنْهُ بُطرسُ الرَسُولُ فِى رسَالتهِ الأولى: "عَالمين أنكم افتديتمْ لا بأشيَاءٍ تفنى بفضّةٍ أوْ ذهَبٍ مِنْ سيرتكم البَاطلة التى تقلدتموها مِنَ الآبَاء.. بل مِنْ دَم كريم كمَا مِنْ حَمَل بلا عَيْبٍ ولا دَنَس دَم المَسيح.. مَعرُوفاً سَابقاً قبلَ تأسيس العَالم ولكنْ قد أظهرَ فى الأزمِنَةِ الأخيرةِ مِنْ أجلكم".[1]

قالَ بُولسُ الرَسُولُ فى رسالته إلى مؤمنى أفسس عن الرّبِّ يَسُوعُ: "الذى فيهِ لنا الفدَاء بدمِهِ غفرانُ الخطايَا حَسَبَ غِنَى نعمتِهِ".. لقد صَالحَنا الآبُ القدّوس لنفسِهِ بدَم صليب ابنِهِ.. كتب يوحنا الرائى فى رؤياه عَن المُتسربلين بالثياب البيض فى السّمَاء أنّ هؤلاء "هُمْ الذين أتوْا مِنَ الضيقةِ العَظيمَةِ وقد غَسّلوا ثيابهُم وبيّضُوا ثيابَهُم فى دَم الخَرُوفِ".. إنّ دَمَ المَسيح يَتكلمُ لتبريرنا ولنجَاتنا مِنَ العقابِ الأبدىّ يقولُ بُولس الرَسُول فى رسالته إلى مؤمِنى رومية بالأصْحَاح الخامس: "فبالأولى كثيراً ونحنُ مُتبرّرينَ الآنَ بدَمِهِ نَخلصُ بهِ مِنَ الغَضَبِ".[2]

أدعُوكَ أخى لتشترِكَ مَعِى فى تلكَ الصلاة: أبَانَا السّمَاوىّ.. أقدّمُ شكرى لجَلالكَ مِنْ أجل تدبير الفدَاء العَجيب.. أسألكَ فى حَقّ الدَم الكريم تبريراً مِنْ خطايَاى وخلاصاً مِنَ الدَينونَةِ وحَياة أبديّة فى سَمَاكَ.. أرفعُ صلاتى فى اسْم يَسُوع البّار واثقاً من استجابتِكَ.. يَا مَنْ وعَدْتَ بقولِكَ: مَنْ يُقبلْ إلىّ لا أخْرجْهُ خَارجاً.

أخى القارئ العزيز.. إنْ أرَدْتَ سماع تلك الرسالة أو غيرها ستجدُ ذلك فى:
http://www.muhammadanism.org/Media/Audio/BetterLife/Default.htm

[1] رسالة بطرس الرسول الأولى ١ : ١٨ – ٢٠
[2] رسالة بولس الرسول إلى مؤمنى أفسس ١: ٧ ، رؤيا يوحنا اللاهوتى ٧: ١٤ ، رسالة بولس الرسول إلى مؤمنى رومية ٥: ٩